فسيفساء الجامع الاموي

عبد القادر الريحاوي

في ذي الحجة من عام سبع وثمانين للهجرة عزم الخليفة الوليد بن عبد الملك على توسعة جامع دمشق وبنائه من جديد، وأراد أن يجعل منه آبدة دمشق الخالدة، بل أعظم ما شيد الملوك على الارض.

ونثر الوليد دنانيره فأقبل عليه الصناع والبناؤون وأهل الفن، وتفتحت عبقريات هؤلاء جميعاً وشحذوا مواهبهم ليحققوا مشروع الوليد. واستمر العمل تسع سنين فأنفق عليه من بيت المال كما يرى ابن عساكر أربعمائة صندوق في كل صندوق أربعة عشر الف دينار[1].

ولم يضن الوليد في الانفاق على بناء الجامع وزخرفته رغم معارضة نفر من صحابته المتقشفين حتى كان يود لو يغطي سقوفه وجدرانه بالذهب الخالص، ولكنه فرشها بما هو أبهى من الذهب وأدق صنعا. لقد رصفت جدران الجامع وأروقته وقناطره كلها بفصوص من الزجاج الملون، مذهب أكثرها ومفضض أطلق الغرب عليها اسم الفسيفساء.

---

(١) ابن عساكر مجلد : ٢. ص : ٣٥، ٤٣. تحقيق الدكتور صلاح المنجد. طبعة المجمع العلمي العربي في دمشق.

ولم يقف الامر عند هذا العمل الدقيق الصعب وهو وصف آلاف الامتار المربعة بهذه البلاطات الصغيرة بل كان من الضروري أن يتألف من وصفها كل ما يخطر على البال من مناظر خلابة ورسوم هندسية بألوانها الطبيعية لتدهش كل من يشاهدها ، (أنظر الصورتين رقم ١ و ٢) .

وصار جامع بني أمية أعجوبة من أعاجيب الدنيا واشتهر في الآفاق . فما أن تم بناؤه حتى جاء وفد الدولة البيزنطية فوصل في عهد عمر بن عبد العزيز وأعجب بما رأى والحادثة مشهورة[1] ..

ثم زاره الخليفة العباسي المهدي فقال سبقتنا بنو أمية بثلاث أحدها هذا البيت ، لا أعلم على ظهر الارض مثله . واعتبره الامام الشافعي أحد عجائب الدنيا الخمس في زمانه وكذلك فسيفساءه .

ويحسن أن نورد في مجال بحثنا عن الفسيفساء ما ذكره الرحالون والمؤرخون القدامى من أوصاف لها تعطينا فكرة عما كانت عليه في الاصل .

ومن أقدم هؤلاء المسعودي الذي زار الجامع عام ٣٣٢ هـ فقرأ في الحرم كتابة بالفسيفساء تخلد اسم الوليد جاء فيها : « ربنا لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذي الحجة سنة ٨٧ » . قال وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو عام ٣٣٢[2] .

ولنرى الآن ما كتبه المهلبي في القرن الرابع عن فسيفساء الجامع قال : « والحنايا والحيطان كلها إلى حد سقفه منقوشة أبدع نقش بالفسيفساء الملون المدهون والمذهب يخطف الطرف ، وكذلك حيطانه كلها في صحنه وسائر أروقته منقوشة مذهبة بالفسيفساء . كتب في حائطه القبلي سور من القرآن بالفسيفساء المذهب في تضاعيف النقش »[3] .

وهناك رحالة ثالث كتب عن الجامع الاموي ووصف فسيفساءه في القرن الرابع وهو المقدسي قال : « وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزع ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة في صور أشجار وامصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وكل شيء أو بلد إلا وقد مثل على تلك الحيطان وقناطر الاروقة كلها مرصعة بالفسيفساء »[4] .

---

(١) ابن عساكر . مجلد ٢ . ص : ٣٥ ، ٤٣ .
(٢) المسعودي . مروج الذهب . ج : ٣ ص : ١٦٦ مطبعة السعادة عام ١٩٤٨ .
(٣) من مخطوط المسالك والممالك للحسن بن محمد المهلبي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ نشرها المنجد في الجزء الاول من مجلة معهد المخطوطات لعام ٩٥٨ .
(٤) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم طبعة ليدن ١٩٠٩ ص ١٥٧ .

من هذه النصوص الثلاثة المتقدمة التي تصف حال الفسيفساء وهي بعد على جدتها في القرن الرابع وبما تبقى إلى زمننا منها يتضح لنا بأن جدران الجامع في الداخل والخارج كانت مغطاة حتى ارتفاع سبعة أمتار تقريباً بالرخام ، وما تبقى إلى السقف مرصوف بالفسيفساء بما في ذلك أقواس الاروقة جميعها .

وكانت مواضيع الزخرفة تتألف من مشاهد مستمدة من غوطة دمشق الجميلة ، نهر بردى وعلى جنباته القصور والدارات ، ومشاهد الطبيعة من أشجار مثمرة وغير مثمرة وأنهار ومياه ومناظر تمثل المدن المختلفة المعروفة في ذلك الوقت ، وكذلك الزخارف الهندسية والنباتية وخاصة الكرمة التي كانت تحيط بجدران الحرم جميعا وأخيراً الآيات القرآنية والكتابات .

وظلت الفسيفساء هكذا فتنة للناظرين ووحياً للشعراء والكتاب حتى بعيد منتصف القرن الخامس ، حين بدأت تغادره جدته واخذ يشارك دمشق في مصائبها وكوارثها ، تلك المصائب التي لم ترع قدسيته وروعته ، فالتهمته النيران مراراً وعصفت به الزلازل تكراراً فتشعثت فسيفساؤه وتساقطت فصوصه وتغير حسنه وبهجته .

حدثت أول كارثة عام ٤٥٨ هـ عام الفتنة بين جيش المغاربة الفاطميين أيام القائد الجمالي وبين المشارقة وأهل دمشق فاحترق ولم يبق منه إلا جدرانه الاربعة كما ذكر سبط ابن الجوزي(١) .

واحترق مرة ثانية عام ٧٤٠ هـ فأصيب جانب الحرم الشرقي مع المأذنة الشرقية والاسواق المحيطة بواجهته الجنوبية . ثم احترق عام ٨٠٣ عندما أحرق تيمرلنك مدينة دمشق ، وكان آخر حريق فيه عام ١٣١١ هـ أيام الحكم العثماني . هذا عدا الحرائق الصغيرة المتعددة التي كانت تصيب بعض أبوابه أو مآذنه وجدرانه .

وأضرت به الزلازل الكثيرة وكان أخطرها تلك التي حدثت في الساعة التاسعة من يوم الاثنين الرابع من رجب عام ٥٥٢ هـ ورمت كما يروي ابن القلانسي من فص الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن اعادة مثله(٢) .

واستمرت الاحداث تشتت فسيفساء الجامع فتنقص المساحات المرصعة بها شيئاً فشيئاً ولولا أن تداركتها عناية المخلصين الغيورين بالاصلاح والترميم في كل العصور لما تبقى منها شيء ،

---

(١) مرآة الزمان المطبوع على هامش تاريخ دمشق لابن القلانسي ص — ٩٦

(٢) تاريخ دمشق ص ٣٤٤ .

ولأصبحت أثراً بعد عين نقرأ عنها ونسمع . ومن حسن حظنا أننا رأينا بقية منها تتوزع هنا وهناك وخاصة في الجانب الغربي من الصحن . وهذه البقية تعتبر ثروة فنية لا تقدر بثمن وهي جديرة بأن يحافظ عليها لتبقى إلى الابد .

صناعة الفسيفساء

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن الاصلاحات التي جرت على الفسيفساء خلال العصور والتي ماتزال تجري إلى اليوم ، يجدر أن نعرض فكرة عن صناعة الفصوص والطرق الفنية المتبعة في رصفها .

الواقع أن هذا النوع من الفسيفساء لم يكن معروفاً قبل العصور الهلينية ، وقد ذاع وانتشرت في عهد اليونان والرومان والبيزنطيين فاستعملوه في تبليط الارض وتزيين الجدران . وكانت الفصوص تصنع من الحجارة الملونة والرخام على شكل مكعبات تتفاوت من حيث الحجم . ثم بدأ الزجاج يغزو هذه الصناعة بشكل ضئيل حين وجدوا فيه مادة سهلة الصنع سهلة التلوين وشاع استعمال الفصوص الزجاجية في العصر البيزنطي لتزيين الكنائس والقصور والحمامات والبيوت . واعتمد على هذا النوع في العصر الاموي اعتماداً كليا بحيث لا نرى في فسيفساء الابنية الاموية التي بقيت إلى عصرنا سوى كمية ضئيلة من الرخام والحجارة الملونة مثبتة بين الفصوص الزجاجية .

وكان الصناع الذين استخدمهم الوليد قوماً من أهالي الشام مهروا صناعة الفسيفساء وتناقلوها عن أجدادهم منذ قرون . ولعل هؤلاء لم ينفردوا في تقديم تحفة الوليد الخالدة بل عاونهم صناع من البلدان الاخرى . حيث تذكر المصادر العربية أن الوليد طلب إلى عاهل الروم تزويده بالصناع : « وجه إليّ بمائتي صانع من صناع الروم فإني أريد أن أبني مسجداً لم يبن في مصر قبله ولا يكون بعدي مثله »(١) . وأشار إلى ذلك المقدسي أيضاً فقال : « يقال ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم »(٢) .

الواقع ان عمال الشام الفنيين لم يكونوا قادرين وحدهم على القيام بهذا المجهود الضخم فعاونهم فنيون آخرون من جميع الاقطار . وهكذا بلغت صناعة الفسيفساء أوجها في عهد الوليد ، ومات بعد ذلك العباقرة الذين خلفوا لنا آخر تحفة فنية في صناعة الفسيفساء واضمحلت بعدهم

(١) ابن عساكر : م ٢ . ص ٢٦ .
(٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٥٧ .

هذه الصناعة الدقيقة شيئا فشيئاً لانه لم يأت بعد الوليد من يتحمس لها بل جاء من أنكر عليه اسرافه في الانفاق من أجلها .

ولذا فانا لا نرى لها سوى آثاراً ضئيلة هنا وهناك في بعض القصور الأموية وفي واجهة قبة الخزنة في الجامع الاموي إذا صح ماترويه المصادر من أنها أقيمت في عصر الخليفة العباسي المهدي(١) ثم نراها تظهر في أعمال الترميم العديدة التي جرت على فسيفساء الاموي خلال العصور، ونشاهدها تزين عدة أبنية أثرية في دمشق كتربة الملك الظاهر بيبرس التي عمرت في القرن السابع الهجري (الصورة رقم ٣) ، وجامع تنكز من القرن الثامن ومحراب المدرسة الجقمقية التي بنيت في القرن التاسع .

فصوص الفسيفساء

وهي عبارة عن مكعبات صغيرة صنعت من عجينة زجاجية بين المظلمة والشفافة صبغت بمختلف الالوان الاخضر والازرق والاسود والاصفر والاحمر العقيقي والمذهب والفضي والوان أخرى متفرعة عنها ، كما نشاهد بينها فصوصاً من الرخام الابيض وبعض قطع الصدف اللماع .

وكانت الفصوص الزجاجية الملونة تصنع على شكل ألواح كبيرة بالالوان المختلفة ثم تقطع إلى فصوص .

وأما الفصوص المذهبة والفضية فطريقة صنعها أكثر تعقيداً ، كانوا يأخذون لوحاً من الزجاج المستعمل في الفصوص السابقة فيطلونه بقشرة رقيقة جداً من الذهب الخالص أو الفضة ثم تغطى هذه القشرة بطبقة رقيقة من الزجاج الابيض الشفاف غايتها الاحتفاظ باللون الذهبي والفضي براقاً على الزمان . وبعد ذلك يقطع اللوح إلى فصوص، تكون غالبا مستقيمة الحافة خلافاً للفصوص الاخرى .

يفهم من النصوص التاريخية التي اوردناها على ان الفصوص التي استعملت لترصيع جدران الجامع الاموي انما جلبت من بلاد الروم استناداً إلى ما يرويه ابن عساكر حول جلب الرخام والفصوص للجامع من قبل الجيوش الغازية في العصر الاموي(٢) . وما يذكره المقدسي في حديثه عن الجامع حيث يقول : وانفق عليه خراج الشام سبع سنين سوى ما أهدى اليه ملك الروم من الآلات والفسيفساء(٣) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج : ٩ ص : ١٤٣ .
(٢) انظر ابن عساكر . مجلد : ٢ ص : ٤٢ تحقيق صلاح المنجد .
(٣) المقدسي : احسن التقاسيم ص : ١٥٧

ولا يستبعد وجود مصانع للفصوص في بلاد الشام كانت تنتج في العهد البيزنطي نظراً لكثرة استعمالها في أبنيتهم في جميع أنحاء البلاد وحتى في القرى ، وقد استمر بعض هذه المعامل على الانتاج في العهد الاموي ، ولعلها لم تكن قادرة على انتاج بعض الاصناف كالمذهبة والمفضضة المعقدة الصنع . أو انها لم تكن تسد حاجة المباني الاموية التي احتاجت إلى القناطير المقنطرة منها مما دعا الخلفـاء إلى استجلاب المزيد منها من بلاد الروم . وقل بعد الامويين استعمال الفسيفساء فانقرضت صناعة الفصوص تدريجياً . وليست الفسيفساء التي نشاهدها في العصور المتأخرة سوى فصوص أمية تساقطت من أماكنها فأعيد استعمالها في الترميمات العديدة التي أجريت على فسيفساء الجامع ، وفي الابنية التي تقدم ذكرهـا أيضاً باستثناء جامع تنكز (١) الذي بناه نائب دمشق الامير تنكز في النصف الاول من القرن الثامن الهجري مع تربة دفن بها بعد موته . فقد اتضح لي بعد فحص الفسيفساء التي تزين محراب التربة ونوافذها بأن فصوصها تختلف من حيث الحجم والصنعة واللون عن فسيفساء الجـامع الاموي (الصورة رقم ٤) فهي غير منتظمة ، وأكبر حجماً من تلك .

وهذا يدلنا على أن محاولة جديدة جرت في ذلك العصر من قبل مصانع الزجاج الدمشقية لصنع الفصوص ، ويبدو ان المحاولة لم يكتب لها النجاح ، فلم تستعمل سوى على نطاق ضيق جداً .

هذا وقد روى الرحالة الدمشقي ابن فضل الله العمري ما يؤيد ذلك فقال في مجال حديثه عن فسيفساء الاموي : « وقد عمل منه في هذا الزمان شيء كثير برسم الجامع الاموي وحصل منه عدة صناديق ، وفسدت في الحريق الواقع سنة ٧٤٠ هـ وعمل منه قِبَل للجامع التنكزي ما على جبهة المحراب ، غير انه لا يجيء تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر . والفرق بين الجديد والقديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد والجديد قطعه مختلفة . وبهذا يعرف الجديد والقديم » (٢) .

ونفهم من هذا النص أيضاً بأن الفصوص التي استصنعت في عصر المؤلف ، لم تستعمل في ترميم فسيفساء الاموي بسبب الحريق الذي أصابها ، كما اننا لم نشهد في كل ما تبقى من فسيفساء

---

(١) احترق مصلى الجامع وتهدم في حوادث العدوان الفرنسي عام ١٩٤٥ وأقيم مكانه بناء حديث ولم يبق منه سوى المأذنة والتربة وبوابتا الجامع .

(٢) مسالك الابصار . الجزء الاول ص ١٩٣ .

الاموي فصوصاً من هذا النوع . وليس هنـاك ما يدل على أن محاولة استصناع الفصوص قد أعيدت فيا بعد وهكذا اضمحلت هذه الصنعة حتى وقتنا هذا .

وعندما بدأت في السنوات الاخيرة اعمال الترميم لاصلاح فسيفساء الجامع الاموي عثر في مستودعات الجامع على كميات كبيرة من الفصوص القديمة المتساقطة من جدرانه خلال العصور ، أخرجها العمال واستعملوها ولما قاربت على الانتهاء بدأ المسؤولون يفكرون في كيفية الحصول على الفصوص واتجهت الاذهان الى الاستيراد من المصانع الايطالية ، وأخيراً حاول أحد العمال الفنيين المهرة في ورشة الترميم الى استصناع نمـاذج شبيهة بالفصوص القديمة ونجح في ايجاد سائر الالوان اللازمة وعندئذ باشرت دائرة الاوقاف في عام ١٩٥٩ ببناء فرن صغير إلى جوار الجامع لانتاج الفصوص . وهكذا عادت هذه الصناعة الفنية التي انقرضت منذ قرون إلى الوجود وأصبح بالامكان استكمال اصلاح فسيفساء الاموي .

وصف الفسيفساء

إن عملية الرصف مهمة شاقة تتطلب مجهوداً فنياً كبيراً وايدي عاملة كثيرة لأنها تهدف إلى تبليط الجدران والقناطر كلها بفصوص صغيرة ووضع كل فص بمفرده في مكانه المعين له ، وحسب الرسوم والمناظر المراد الحصول عليها بعد الرصف .

وقد أمكننا استنتاج بعض الملاحظات في ايضـاح الطريقة التي كان يتبعها صناع الفسيفساء بمشاهدتنا أعمال الترميم الجارية حالياً وبفحص القطع المنتزعة من الجدران نلخصها كما يلي :

أولاً – كانت تغطى الجدران الحجرية بطبقة من المونة الكلسية الممزوجة بالتبن سماكتهـا حوالي ٢ سنتيمتراً .

ثانياً – يقوم الفنان برسم الاشكال والمناظر على هذه الطبقة الكلسية الجافة الصقيلة أو يكتفي برسم الخطوط الرئيسية فقط مستعملاً قلماً من الفحم أو ما يشبه ذلك .

ثالثاً – تجري عملية الرصف من قبل العمال المساعدين باستعمال طبقة من المعجونة مصنوعة من الكلس ومادة زيتية تحول دون جفاف المعجونة بسرعة وذلك كي يتمكن العامل من غرس

فيمد المعجونة شيئاً فشيئاً ويغرس فوقها الفصوص ذات اللون المطلوب وفقاً للشكل المرسوم ثم يملأ بقية اللوحة بفصوص من لون مغاير لتشكيل أرضية اللوحة . الفصوص فيها وهي طرية .

إن الناحية الفنية التي شرحناها في الفقرة (٢) بدت واضحة عندما أخذنا قطعة من الفسيفساء القديمة وفصلنا طبقتي المونة عن بعضها فشاهدنا آثار الرسوم التي وضعها الفنانون على الكلسة الجدارية وقد طبعت على المعجونة الملاصقة لها . (انظر الصورة رقم ٥) .

وكما تبين بأن هذه الطريقة لم تكن عامة بل كان الفنان في بعض الاحيان يقوم بالرصف مباشرة دون أن يعتمد على رسم مسبق . هذه النتيجة التي توصلنا اليها تخالف كل المخالفة ما قرره العالم الاثري (دولوري) من أن الفنان كان يرصف الفصوص بعد رسم الخطوط الاساسية على المعجونة الطرية[١] » ولو صح هذا لبدت الرسوم خلف الفصوص مباشرة وليس خلف المعجونة كما توضح الصورة المشار اليها .

وهناك ناحية فنية أخرى كانت تتبع في الرصف وهي وضع الفصوص الذهبية مائلة إلى الاسفل بزاوية قدرها حوالي ٣٥ درجة كي يتاح للناظر اليها من الاسفل من مشاهدة سطحها الجميل ، وذلك خلافاً لوضع الفصوص الاخرى .

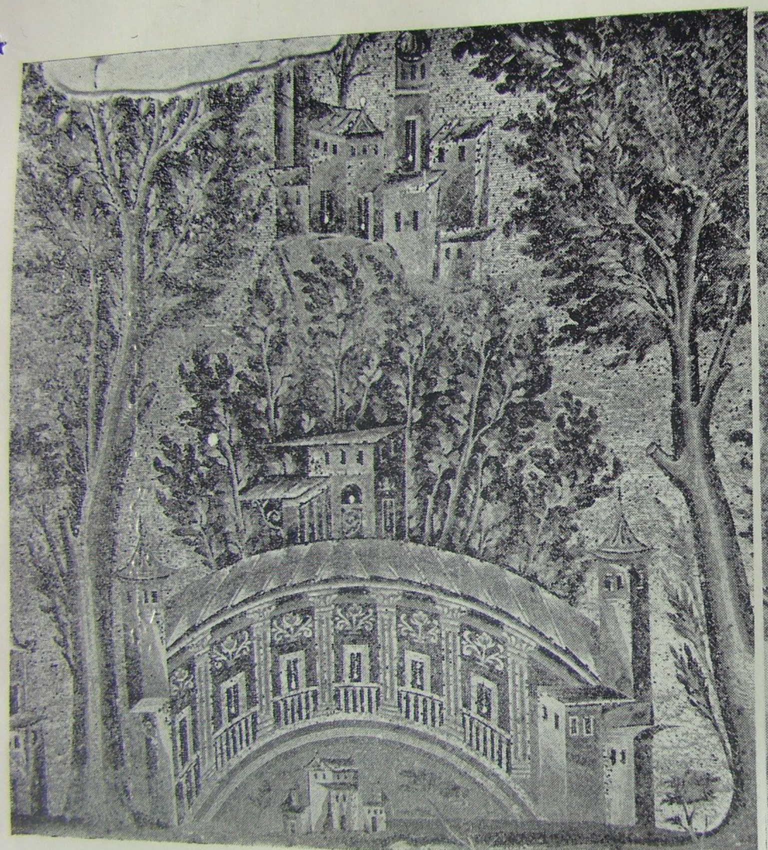
ترميم الفسيفساء

قلنا أن فسيفساء الجامع الاموي قد تشقق أكثرها وتساقطت فصوصه بسبب الحرائق العديدة والزلازل التي تعرض لها الجامع خلال الثلاثة عشر قرناً الماضية . وكان المقيمون على الجامع يجمعون الفصوص المتساقطة لاستحالة صنع مثلها فيدخرونها في مستودعات الجامع حتى تحين فرصة لاعادتها من قبل الفيودين ونستشهد للتدليل على ذلك بما يرويه ابن كثير في حديثه عن حريق عام ٤٦١[٢] قال : « وكان جميع ما سقط منه من الرخام والفصوص والاخشاب

---

(١) De Lorey . Syria. T. XII - 1931 P. 329

(٢) هو نفس الحريق الذي تقدم ذكره والذي أرخه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان في عام ٤٥٨ .



الصورة رقم ١ ـ زخارف معمارية في جدار الرواق الغربي



الصورة رقم ٢ ـ لوحة تمثل دارات على نهر بردى في جدار الرواق الغربي



الصورة رقم ٣ ـ فسيفساء تربة الظاهر بيبرس



الصورة رقم ٤ ـ فسيفساء ، في محراب التربة التنكزية



الصورة رقم ٥ ـ فسيفساء أحد عقود الرواق بعد فكها ونزع طبقة الكلسة الجدارية عنها

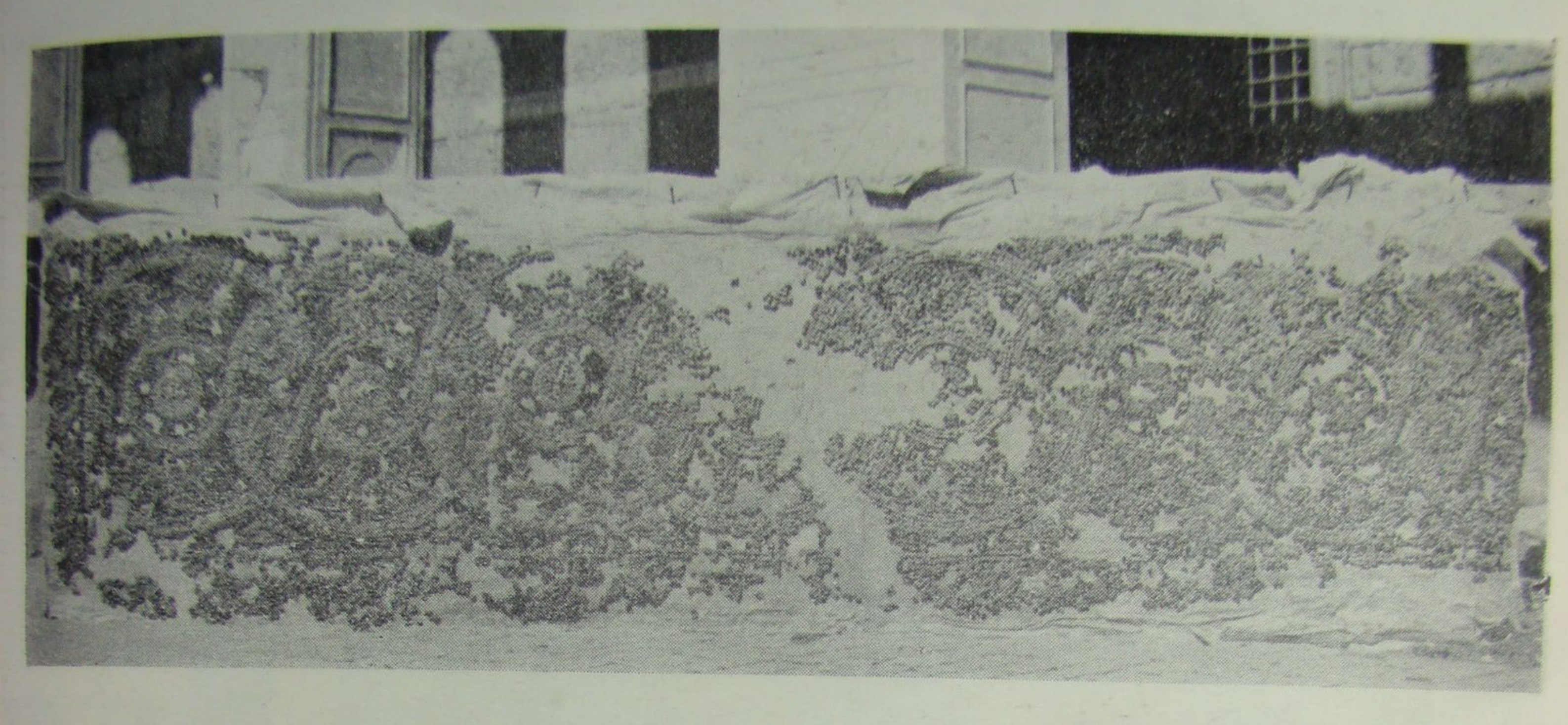


الصورة رقم ٦ — كتابة من عهد الملك نور الدين زنكي في الرواق الشرقي

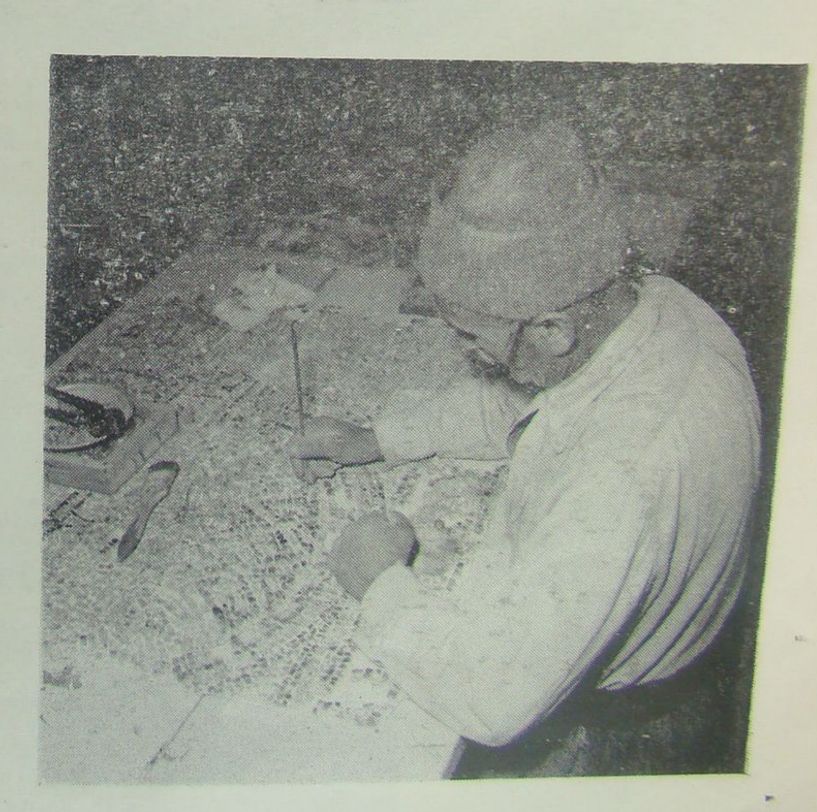
الصورة رقم ٧ ـ كتابة من عهد الظاهر بيبرس في رواق باب البريد



الصورة رقم ٨ ـ ورشة الترميم في مشهد الحسين



الصورة رقم ٩ ـ الفسيفساء بعد نزع المونة ، تبقى فصوص لاصقة بالقماش



الصورة رقم ١٠ ـ عملية اكمال الفصوص الناقصة



الصورة رقم ١١ـ الفسيفساء بعد انتهاء الترميم وصب الاسمنت المسلح خلفها

وغيرها مودعاً في المشاهد الاربعة حتى فرغها من ذلك كمال الدين الشهرزوري في زمن العادل نور الدين محمود بن زنكي حين ولاه نظره مع القضاء »[١] .

وجرت محاولات عديدة لاصلاح الفسيفساء واعادة الفصوص المتساقطة إلى مكانها . وأهم هذه المحاولات تلك التي تمت في عهد الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكي وخلدتها كتابة جدارية بالفسيفساء في واجهة الرواق الشرقي المطلة على الصحن . وهذا نصها : « صلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه وخلفائه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي » . « ... مولانا الملك العادل الزاهد المرابط المجاهد نور الدين أبو القاسم محمود » . (الصورة رقم ٦)

والمحاولة الثانية كانت في عهد صلاح الدين ، فقد أمر بترميم قبة النسر والفص المذهب والطاقات ووجه النسر سنة ٥٨٥ هـ[٢] .

ورمم قسم من الفسيفساء في عهد الظاهر بيبرس « رأى السلطان الظاهر بيبرس الحائط القبلي قد اتسخ رخامه وتشعثت الفسيفساء فأمر باصلاحها »[٣]

وليس هناك أثر لهذا الترميم في الحرم بسبب احتراقه الشامل عام ١٣١١ هـ . إلا أننا نشاهد أقساماً هامة من الفسيفساء صنعت في عهد الظاهر ولا تزال باقية إلى اليوم تخلدها كتابة في مدخل باب البريد في أعلى جداره الجنوبي هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عمر في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل المنصور ركن الدنيا والدين بيبرس الآمر بعمارة الاوقاف وتجديدها (قسيم) أمير المؤمنين المطاع بأمر المولى المقدم ملك الامراء جمال الدين آقوش النجيبي الملكي الظاهري نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروسة ... » . (الصورة رقم ٧)

وفي آخر الكتابة كلمات غير مقروءة تشير إلى التاريخ إلا أننا إذا عرفنا زمن ولاية النجيبي على دمشق وهي الفترة الواقعة بين عامي ٦٦٠ و ٦٧٠ هجرية امكننا تحديد زمن الترميم ،

---

(١) البداية والنهاية ج : ١٢ ص : ٩٧ .

(٢) ابن شداد الاعلاق الخطيرة ـ الجزء الخاص بدمشق ص ٧٥ تحقيق الدكتور سامي الدهان .

(٣) المصدر السابق ص ٧٩ .

ولعله كان عام ٦٦٣ استناداً إلى ما يذكره ابن كثير عن تبليط باب البريد في هذا العام[١]. ويؤيد ذلك أن النص الجداري أشار إلى أعمال الاصلاح المختلفة التي تمت في عهد الظاهر ومن جملتها اعادة أقسام من الفسيفساء إلى أماكنها.

ولم تكن أعمال الترميم هذه كالاصل من حيث الصنعة والفن حتى ليسهل تمييزها بسهولة عن الاصل المتقن الجميل.

وفي العصور المتأخرة ظهر عجز الحكام عن اعادة الفصوص وترميمها فاكتفوا بجمع الفصوص المتساقطة وتغطية الفسيفاء الضعيفة بطبقة من الكلسة لتحفظها من السقوط، وقد أحسنوا صنعاً لأنهم حفظوها بذلك إلى عصرنا.

وقد أجريت عام ١٩٢٨ أول عملية للكشف عن فسيفساء الرواق الغربي بازالة الكلسة عنها تحت اشراف العالم الفرنسي De Lorey (دولورى) الذي كتب بحثاً عن فسيفساء الاموي تعرض فيه بصورة خاصة إلى أصل المواضيع الزخرفية ذات الطابع المعماري[٢]. وقطعت الآنسة مرغريت (فان برشم) دراسة واسعة عن فسيفساء الاموي وصفت مواضيعها الزخرفية وصفاً دقيقاً وتحدثت عن الفن والصنعة فيها. نشرها كريزول في كتاب فن العمارة الاسلامية[٣]. واليوم يشرع الفنيون بتنفيذ عملية كاملة متقنة وعلى مدى واسع لاصلاح المساحات المتبقية واعادتها كما كانت وعلى جانب من المتانة. وهذا عمل يدعو للفخر وفق اليه هؤلاء دون الاعتماد على خبير أجنبي، وقد أعجب كل من زار هؤلاء العمال في ورشتهم واطلع على مراحل عملية الترميم والطرق الفنية البسيطة التي يتبعونها. (الصورة رقم ٨). وأجد من المفيد أن أشرح الطريقة المتبعة في الترميم التي يمكن اعتبارها نموذجاً ناجحاً لاصلاح الفسيفساء في العالم.

بدأ العمل منذ عدة سنوات باشراف السيد رئيف الحافظ أحد خبراء المديرية العامة للآثار والمتاحف يعاونه عمال أذكياء وعلى نفقة دائرة الاوقاف. وكشفت أقسام هامة كانت مغطاة

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤٥

(٢) De Lorey : syria - T. XII - 1931 p. 326

(٣) Creswelle Early Muslim Architecture. T. I P. 229.

بكلسة ملونة تحفظها من السقوط في الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن فجرى فكها وترميمها. ثم انصبت جهود هذه الورشة في السنوات الاخيرة على إصلاح فسيفساء الرواق الغربي ومدخل باب البريد وهي من أهم الاقسام المتبقية وأجلها . ولا تزال الاعمال مستمرة تتناول منطقة تلو الاخرى .

وتتلخص عملية الترميم الحديثة هذه بالمراحل التالية :

١ – تعين القطعة المعرضة للسقوط تمهيداً لنزعها من الجدار أو القوس (العقد) وانزالها إلى الارض .

٢ – تلصق قطعة من القماش على سطح القطعة بمادة غرائية تتألف من سكر وطحين وغراء ممزوجة بنسب معينة ، وبذلك يلتصق وجه الفصوص مباشرة مع القماش .

٣ – بعد جفاف القماش تنزع القطعة عن الجدار وتؤخذ إلى مكان الورشة . وإذا كانت القطعة غير مستوية أو على شكل قوس صنع لها قالب من الخشب والصق بها قبل فكها كي تحافظ على شكلها (الصورة رقم ٨) . وإذا صعب استعمال القالب الخشبي من أجل فك الزوايا صنع لها قالب من الجبصين يوضع بينه وبين القماش طبقة من الشمع كعازل لكي لا يتسرب ماء الجبصين إلى القماش .

٤ – تزال المونة القديمة اللاصقة بالفصوص وتنظف ولا يبقى منها سوى الفصوص الملصقة على القماش . (الصورة رقم ٩)

٥ – توضع قطعة القماش هذه على منصة لاضافة الفصوص الناقصة اليها . وإذا كانت الثغرات واسعة وضعت دراسة للوحة ثم رسمت الاشكال الناقصة على القماش . وهذه الاشكال تستنتج من التناظر الموجود في اللوحة عادة ومما تبقى من الشكل الاصلي ، ثم يقوم العمال برصف الفصوص فوق هذه الخطوط المرسومة .

وقد صنفها العمال بحسب ألوانها ووضعوها في علب أمامهم ليسهل عليهم اختيار الفص المناسب من حيث لونه ، ويلصق وجهه على القماش بالمادة الغرائية السابق ذكرها . (الصورة رقم ١٠) .

وهنا لا ينسى العمال اتباع نفس الاسلوب القديم في رصف الفصوص الذهبية والفضية بحيث ترصف مائلة ٣٥ درجة إلى الاسفل . وقد شرحنا الغرض من ذلك فيما تقدم .

٦ ـ الآن بعد أن غدت اللوحة كاملة كما كانت في الاصل ، تصب خلفها طبقة من الاسمنت المسلح تمسك بالفصوص امساكاً قويا . وإذا كانت اللوحة غير مستوية فانها تعاد إلى قالبها قبل صب الاسمنت ، كي تعود إلى شكلها السابق .

٧ ـ بعد جفاف الاسمنت يبلل القماش بالمـاء لاذابة الغراء وينزع عن اللوحة ثم تغسل وتنظف بفرشاة لازالة ما علق بها من الغراء . وتبدو كاملة جاهزة . (الصورة رقم ١١) .

٨ ـ تعاد القطعة إلى مكانها وتثبت بالجدار بواسطة كلاليب حديدية ويصب خلفها الاسمنت لتغدو قوية لا تزعزعها الايام .

٩ ـ يلاحظ حدوث فراغات حول القطعة حدثت عند فصلها . يملؤها العمال بالفصوص في مكانها وتتحد اللوحة مع ما حولها وتعود كما كانت في أول عهدها . وهكذا يكتب الخلود لفسيفساء الجامع الاموي الشهيرة .

عبد القادر الريحاوي